# البدوُ والبداوة في كتاباتٍ من لبنان

ميشال جحا

**﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخِفّونها يوم ظعنِكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.**

سورة النحل/الآية ٨٠

**مدخل:**

ـ لا وجود للبداوة إلا متى تحققت العناصر الأربعة التالية: ١ـ البادية ٢ـ البدوي ٣ـ الجمل ٤ـ الخيمة.

ـ لبنان هو البلد العربي الوحيد الذي لا بادية فيه ولذلك ليست فيه بداوة.

ـ وإن تكن بعض البلدان العربية الغنية ـ وخاصة المملكة العربية السعودية ـ تبذل الجهود وتنفق الأموال وهي تحاول جاهدة تحضير البدو وإنهاء البداوة، فإن البدو لا يزالون موجودين ويشكّلون نسبة كبيرة من السكان خاصة في موريتانيا والصحراء الغربية.

ـ إن حياة البداوة لا تزال كما كانت عليه منذ ما قبل الإسلام ولا اعتقد أن شيئاً جديداً قد دخلها من نتاج الحضارة الحديثة سوى «الترنزيستر» والبندقية!

ـ إن دراسة حياة البدو تساعد على فهم أخلاقهم ونمط حياتهم وتصرفاتهم

وعاداتهم وطرق تفكيرهم؛ كما تساعد على فهم أسْمارهم وأخبارهم وأنسابهم وقبائلهم التي وصلتنا منذ الجاهلية وبعد ظهور الإسلام.

ـ في هذه الدراسة سوف اقتصر على ما كتبه كتّاب لبنانيون حول البداوة وحياة البدو ـ على الرغم من أن لبنان ليس فيه بداوة كما ذكرنا ـ لأن تناول كل ما كتب خارج لبنان حول هذا الموضوع أمر متعذر.

## تمهيد

يلاحظ الباحث أن ما وضع منذ عصر النهضة في مؤلفات تناولت حياة البدو والبادية في اللهجة العربية هو قليل إذا ما قيس بما وضعه الرحّالة والمستشرقون الأجانب ـ من الأوروبيين بشكل خاص ـ في هذا الموضوع. فهم كانوا السبّاقين إلى ذلك. ومنهم من وضع أفضل الكتب والأبحاث حول هذا الموضوع وهي لا تزال حتى يومنا هذا تحتفظ بقيمتها وأهميتها. وأغلب هذه المؤلفات وُضعت بالإنكليزية.

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرنجة عاشوا في البوادي مع البدو وخالطوهم وخبروا حياتهم وأنماط معيشتهم وراقبوا ذلك بدقة فسجلوه لنا؛ وعلى الرغم من أن أغلبهم كان يعرف العربية ويفهم لغة البدو ـ بعضهم اعتنق الإسلام لكي يتقرب منهم ويسهل عليه فهم عالمهم بشكل أوفى ـ فإن هؤلاء الأجانب من رحّالة ومستشرقين وروّاد يبقون أجانب ينتمون إلى حضارة وديانة وبيئة مختلفة كل الاختلاف عن البداوة. بعضهم عانى من صعوبة اللغة ففاته فهم بعض التعابير التي يستخدمها البدو، كما فاته فهم بعض عاداتهم.

فمنذ أواخر القرن الثامن عشر ـ أي منذ أكثر من قرنين من الزمن ـ بدأ المستشرقون والرحالة الأوروبيون يؤلفون الكتب حول البدو والبادية نذكر منهم فولناي Volney الفرنسي الذي وضع كتاب «رحلات عبر سوريا ومصر» (١٧٨٣ ـ ١٧٨٥) ترجم عن الفرنسية ونشر في لندن في مجلدين (١٧٨٧). وكتاب نيبور Niebuhr «رحلات في الجزيرة العربية» في مجلدين ترجم إلى الإنكليزية (١٧٩٢). والرحّالة السويسري بوركهارت Burckhardt «رحلات في الجزيرة العربية»

(١٨٢٩). واللّيدي أني بلنت Lady Anne Blunt البريطانية «قبائل البدو على الفرات» (١٨٧٩) و«حِجّة إلى نجد» في مجلدين (١٨٨١). والبريطاني بالجريف (Balgrave) «خبر رحلة سنة في الجزيرة العربية ـ الوسطى والشرقية» في مجلدين (١٨٦٢ ـ ١٨٦٣). والفرنسي شارل هوبر (Huber) «وصف رحلة في الجزيرة العربية» (١٨٨٣ـ ١٨٨٤). والبريطاني السير رتشرد برتون (Burton) «حِجّة إلى مكة والمدينة» (١٨٩٣). وجون فلبي (Philby) البريطاني «قلب الجزيرة العربية» (١٩٢٢) و«الربع الخالي» (١٩٣٣). والتشيكوسلوفاكي ألواس موزل (Musil) «شمال الحجاز» (١٩٢٧) و«شمال نجد» (١٩٢٨)، و«التقاليد والعادات عند بدو الرولة»(١٩٢٨)، والفرنسي موللر (Muller) «في سوريا مع البدو» (١٩٣١) والبريطاني تشارلز دوتي (Doughty) «رحلات في الصحراء العربية» في مجلدين (١٩٣٦). والأميركي تورتشل (Turtchell) «العربية السعودية» (١٩٤٧) وديكسون (Dickson) «عربي الصحراء» (١٩٤٩) ووليم لانكستر (Lancaster) البريطاني «بدو الرولة اليوم» (١٩٨١) وسواهم كثير.

يعترف احمد وصفي زكريا في مقدمة كتابه «عشائر الشام» بفضل هؤلاء الرحّالة والمستشرقين الأجانب على دراسة البدو والبادية فيقول[١]:

«قد صرنا الآن حتى في هذه الموضوعات المتعلقة بنا عالة على روّاد الإفرنج ومستشرقيهم، لأن هؤلاء ما برحوا يتجشّمون ويحادثون، ويتتبعون هذه الأخبار والوقائع والنوادر، ناهيك الأبحاث الطبوغرافية والأثرية والاجتماعية والاتنوغرافية وغيرها التي برعوا بها أيّ براعة. فهم لم يغادوا أي بادية من بوادينا إلا اخترقوها، ولا عشيرة من عشائرنا إلا وزاروها... كل ذلك بنشاط واهتمام يثيران الإعجاب والإكبار. وهم كما لا يخفى ولوعون بالبحث والتدقيق، حريصون على التأليف والتدوين، أسخياء بالبث والنشر وإفادة الغير. فقد دوّن اولئك الروّاد والمستشرقون كتباً عديدة في مختلف اللغات الأوروبية... نقرأها بكثير من التفكير والتقدير. ولو جئت وعددت أسماء هؤلاء الأفاضل واذكر الأماكن التي ولجوها

(١) زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، جزءان، دمشق ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧، ١: ٥ـ ٦.

وجابوها في فيافي الجزيرة العربية وقد أتوها من أقصاها إلى أقصاها حتى الربع الخالي، وأنقل المشاق والأخطار التي قاسوها في الأوغار والرمال والحرّ والقرّ والجوع والعطش، والمؤلفات التي وضعوها مزيّنة بالرسوم والخرائط والأرقام. ناهيك جودة الوصف ودقة الشرح واللذين يجعلانك تلمس الموصوف والمشروح لمساً، قلت لو جئت اعدّد ذلك لضاق بي مجال هذا الكتاب».

وإن كان بعض هؤلاء الرحّالة والمستشرقين وسواهم من رجال المخابرات والجاسوسية وموظفي دوائر الاستعمار قام بما قام به بأهداف سياسية أو تجارية أو استعمارية أو عسكرية، فإن العديد منهم قاموا بما قاموا به يدفعهم حب العلم والكشف والاستطلاع والتنقيب عن الحقيقة والمعرفة لأجل المعرفة ببعضهم من بلدان صغيرة لا علاقة لها بالاستعمار كسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وفنلندا، فهم منزهون قدر الإمكان عن الهوى والغايات والمآرب السياسية والاستعمارية!

يقول الدكتور جبرائيل جبور (١٩٠٠ ـ ١٩٩١) في كتابه «البدو والبادية» حول هذا الموضوع[١]:

«لا بدّ لي... أن أنوّه بسبق هؤلاء الرواد والعلماء (من الرحالة والمستشرقين الأجانب) وبفضلهم، وأن أكرّر الثناء لهم على جهودهم التي بذلوها والمشاق التي لاقوها في سبيل هذه الأعمال التي اقترنت بالمغامرات فيها وبالهوايات وبحب العلم والبحث فخلّفت هذه الآثار. وأخص بالإعجاب اثنين هما شارلز دوتي الذي عرفه البدو باسم خليل النصراني وألوس موزل (الشيخ موسى الرويلي) فإن كتبهما هي خير ما وضع في موضوع البادية دون منازع».

ولا بد لنا من أن نشير إلى أن بداية الاهتمام بالبدو وبالبادية في العالم العربي كانت في القرن السادس عشر وما بعده لأهداف تجارية أول الأمر قامت بها بعض الشركات التجارية الأجنبية، بغية السيطرة على طريق الهند ـ قبل شق قناة

(١) جبور، الدكتور جبرائيل، البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام، دار العلم للملايين، بيروت ط ١ ١٩٨٨ (ص ٢٧).

السويس ـ التابعة لدول هولندا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، لاحتكار التجارة مع بلدان الشرق والتنافس على الأسواق التجارية.

وإلى ذلك يشير الدكتور جبور (ص٣١):

«ولعل هنا خير موضع نشير فيه إلى سبب التفات الغربيين إلى الجزيرة العربية وباديتها ولا سيما الرواد الإنكليز منهم وهو أنه لما أخذت دول الغرب تتنافس فيما بينها في سبيل فتح الطرق التجارية إلى الشرق حين رأت ما فيه من كنوز وحاصلات، أخذت إنجلترا تبعث رسلها لاكتشاف طرق عبر الجزيرة العربية إلى الهند فكان لا بد من الاعتماد على طريق بري يساعد أو يستعاض به عن الطريق البحري الطويل عبر رأس الرجاء الصالح في جنوب إفريقيا».

**كتب وضعها مؤلفون عرب**

في أواخر القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين ظهرت أبحاث ومقالات نشرت في بعض الجرائد والمجلات تناولت موضوع البدو والبداوة باللغة العربية. كما صدرت كتب مستقلة مثل كتاب: «البدوي»[١] لإسكندر يوسف الحايك، صدر في أوائل هذا القرن. و«ما رأيت وما سمعت»[٢] لخير الدين الزركلي، و«عامان في عمّان» (القاهرة ١٩٢٥)، و«ملوك العرب»[٣] لأمين الريحاني (١٨٧٦ ـ ١٩٤٠)، و«خطط الشام»[٤] لمحمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣)، و«جزيرة العرب في القرن العشرين»[٥]، وكتاب الإشمندريت بولس سلمان «خمسة أعوام في شرقي الأردن»[٦]. و«كتاب القضاء البدوي» لعودة القسوس[٧]. و«قلب جزيرة العرب»[٨] لفؤاد حمزة. وثلاثة كتب لعارف العارف قائمقام غزة

(١) البدوي، أو الحياة الفطرية في الصحاري العربية، منشورات مجلة مرآة الغرب، بيروت [لات].
(٢) القاهرة ١٩٢٣، وله أيضاً «رحلة في البادية» طبعة اولى ١٩٣٦.
(٣) أو رحلة في البلاد العربية، جزءان، بيروت، والمطبعة العلمية، ١٩٢٤.
(٤) دمشق ١٩٢٥، في ٦ مجلدات.
(٥) لحافظ وهبة، القاهرة، ١٩٢٥.
(٦) حريصا، لبنان، ١٩٢٩.
(٧) عمان، ١٩٢٩.
(٨) القاهرة، ١٩٣٣.

أيام الانتداب البريطاني «القضاء بين البدو» (القدس، ١٩٣٣) و«تاريخ بئر السبع وقبائلهم» (القدس، ١٩٣٤) و«الحب والشريعة والتقاليد عند البدو» (القدس، ١٩٤٤). وعبّاس العَزّاوي صاحب كتاب «عشائر العراق» (بغداد، ١٩٣٧). وكتاب «عشائر الشام» الذي مرّ ذكره. وكتاب «البادية» لعبد الجبار الراوي (بغداد، ١٩٤٩). وكتاب «البدو والعشائر في البلاد العربية» لعبد الجليل الطاهر[١]. وكتاب «البدو والقبائل الرحّالة في العراق» لمكي الجميل (بغداد، ١٩٥٦) وكتابه التالي «البداوة والبدو في البلاد العربية» (سرس الليان، ١٩٦٢). وكتاب الأب جورج سابا وروكز بن زائد العزيزي «صفحات من التاريخ الأردني ومن حياة البادية» (عمان، ١٩٦١). ومؤيد الكيلاني «محافظة حماه» (دمشق، ١٩٦٤). وكتاب «البدو والبداوة» للدكتور محيي الدين صابر والدكتور لويس كامل مليكة (سرس الليان، ١٩٦٦). وأخيراً كتاب الدكتور جبرائيل جبور الذي أشرت إليه سابقاً.

يلاحظ أن البحث عن موضوع البدو والبادية تناول المشرق العربي دون المغرب أما أنا في هذا البحث فإني سأقف عند ثلاثة مؤلفين لبنانيين تناولوا هذا الموضوع يفصل بينهم قرن كامل من الزمن وهم: ١ـ ثلاث مقالات لسليمان البستاني نشرت في مجلة المقتطف[٢] تحت عنوان «البدو». ٢ـ «البدوي» أو الحياة الفطرية في الصحارى العربية لإسكندر يوسف الحايك وقد ذكرناه سابقاً. ٣ـ و«البدو والبادية» للدكتور جبرائيل جبور وقد مرّ ذكره.

## (١) البدو

ولنبدأ بما كتبه سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) منذ قرن ونيف أي قبل صدور كتاب الدكتور جبور بمئة سنة تماماً. يظهر في المقالات أن البستاني قد عرف

(١) القاهرة، معهد الدراسات العربية والعالمية ١٩٥٥.

(٢) مجلة المقتطف المجلد ١٢ (١٨٨٧ ـ ١٨٨٨) (ص ١٤١ ـ ١٤٧ و٢٠٢ ـ ٢٠٧ و٢٧٠ ـ ٢٧٤).

حياة البدو وشاركهم معيشتهم فوقف على أخبارهم ووصف لباسهم وطعامهم وعاداتهم وتقاليدهم وغزواتهم وحروبهم.

فالبدو هم قوم رحّل لا يبتنون بيتاً ثابتاً، بيوتهم على ظهور مطاياهم ينصبونها حيث أقاموا معتمدين في معيشتهم على ماشيتهم يغذّونها بما أنبتت الأرض من كلأ ويتغذون بلحومها وألبانها ويتخذون ما فاض لديهم منها ومن صوفها وشعرها ووبرها لسدّ ما بقي من احتياجاتهم من مطعم وملبس ومسكن واكتساب درهم يستعينون به لدى الحاجة.

وهو يقصر كلامه على بدو العرب دون سواهم وعلى البحث في حالتهم الراهنة من حيث معيشتهم ومآكلهم وملابسهم ومساكنهم ولغتهم وسحرهم وغزواتهم وسائر اصطلاحاتهم وعاداتهم.

وهو يقول إن العرب جميعاً من بدو وحضر من أصل واحد يقطنون بلاداً واحدة وهي شبه جزيرة العرب الواقعة بين خليج فارس وبحر عُمان والأوقيانوس الهندي والبحر الأحمر متصلة برًّا بسوريا والعراق. فالحضر يقطنون السواحل وأخصها بلاد تهامة وحضرموت وبعض سواحل اليمن والحجاز والأراضي المرتفعة المرويّة بماء المطر كهضاب نجد واليمامة والجبال الممتدة من حائل في الحجاز متخلّلة قسماً كبيراً من بلاد الحجاز واليمن واليمامة وتهامة ولهم أيضاً بعض البلدان في السهول. أما البدو فأكثر سكناهم في السهول يراقبون سير الفصول فإذا اشتّد بهم الحر طلبوا الأنهر ومجاري المياه والأراضي النضرة. وإذا ذهب القيظ ونزل الغيث وارتدت الأرض وأنبتت ربيعها توغلوا في القفار مستصحبين ماشيتهم وبيوتهم. وهم على كلتا الحالتين لا ينقطعون عن مواصلة الحضر لبيع ما لديهم وشراء ما احتاجوا إليه من مأكول وملبوس.

وهو يرى أن قبائل كثيرة منهم خرجت من الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده إلى المغرب وإفريقيا وأخرى ذهبت إلى العراق وما بين النهرين وبلاد العجم فاستوطنتها، وإن هذه القبائل البدوية حافظت على ما ورثته من عادات وطبيعة معيشة وفطرة وشهامة ورعاية الجار والغريب وما إلى ذلك. . .

وهو يقول إن البدو في جميع الصحارى العربية متشابهون فلو خرجنا من دمشق الشام إلى عرب عنزة والرولة وضربنا في البادية حتى اتصلنا إلى شمر الجبل وانعطفنا يميناً إلى العجمان وتوغلنا في البرّ حتى بلغنا الضفير ومطير وسرنا من الرقمتين شمالاً إلى أن أدركنا المنتفق على الفرات وعبرنا دجلة إلى بني كنانة وربيعة وانعطفنا شرقاً جنوبياً إلى بني أسد وبني لام حتى اتصلنا إلى كعب في بلاد العجم لما رأينا اختلافاً في أخلاقهم فوق ما نرى بين أهالي بيروت وإحدى قرى لبنان. إن الطبيعة قد قضت على الحضر بالتقلب والتخلُّق وعلى البدو بالثبات على حالة واحدة. وإذا كان البدو موصوفين بخشونة الطباع وأنهم لم ينالوا في التمدن العصري إلا نزراً قليلاً غير أنهم جامعون رقة الإحساس على دقة الإدراك. وهو يصور لنا الفارق بين حياة البدو والحضر في هذا الحديث الذي دار بين رجل من كبراء تجار العرب وشيخ من رؤساء امرائهم. فقال التاجر: على مَ يا مولاي وانت ذو ثروة لم ينلها أحد من الناس تؤثر الإقامة في البر والقفر على البلدان المعمورة ذات الحدائق النضيرة تعرض نفسك لأرق الليل وقلق النهار؟! فأطرق الشيخ برهة ثم قال: أجبني قبل ما هي مساحة منزلك؟ فقال: مائة ذراع في عرض مثلها فقال الأمير: ما قولك لو خرجت إلى مائة ذراع أخرى قال يصدني جيراني. قال: فانظر إذاً إلى هذا السهل النضر والفرات عنه على مرحلة يوم إلى يميني ودجلة على مسير يومين إلى يساري حتى تتصل إلى القرنة جنوباً وترجع إلى الحلّة شمالاً بين مسافة خمسة أيام فهذا كله بيتي فكيف أستبدله بقفصك الحرج ولو طمرته بالجوهر لا وربِّ الكعبة!

وهو يصنّف البدو إلى ثلاثة أصناف: **البدو ونصف البدو وبدو البدو**.

**فالبدو** وهم الفئة الكبرى يتسمون بما تقدم من الصفات.

**ونصف البدو** هم الذين ينزلون على مجاري الأنهر الكبيرة يقيمون في بيوتهم الشَعرية أو أكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل والبرديّ يزرعون ما جاورهم من الأرض ويظلون فيها حتى إذا أجدبت المنابت هجروها إلى منازل أخرى وعاودوها بعد حين ومنهم قبائل المنتفق على الفرات وبنو أسد قوم الأخطل

وبنو لام الذين ينتمي بعضهم إلى الدروز على دجلة وبنو تميم والعيدان على شط العرب. . .

أما **بدو البدو** فهم فئة قليلة إذا صح أن يطلق اسم البدوي الصرف على أحد من الناس فعليها يطلق. . . انهم أوروبيو الأصل من دم افرنجي ويعرفون باسم **الصَّلَبة**. وهم ـ فيما يقال ـ من بقايا الصليبيين الذين تشتتوا بعد أن فرّقت شملهم دولة الأيوبيين والمماليك والتتر فالظاهر أن طائفة منهم التجأت إلى بادية الشام وامتزجت بأهاليها وجنّسها الزمان بجنسها وعلى ذلك ادلّة منها:

**أولاً**: كثرة العيون الزرق فيهم بخلاف سائر العرب.
**ثانياً**: امتلاء الوجه ووفرة الشعر فيه.
**ثالثاً**: إذا سألتهم عن أجدادهم قالوا أجدادنا الفرنك.
**رابعاً**: عدم انتمائهم إلى مذهب مخصوص.
**خامساً**: ولئن كان الزمان فعل فيهم فعلاً قاطعاً فهم لا يزالون أقل سمرةً من سواهم.
**سادساً**: اختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو.

وهم موزعون في بادية العرب يقيمون زرافات قليلة في أماكن لا يعتمدون على اقتناء الأبل والخيل بل عندهم الأُتن ينقلون عليها بيوتهم إذا أرادوا الرحيل ولهم مهارة عجيبة في القنص. ويكتسون أكثر الأحيان بجلود الغزلان ويكثرون الجولان في البرّ وقلما يقربون المدن وهم أعرف الناس بطرق المفاوز والقفار حتى إن البدو أنفسهم يتخذونهم أدلّة في رحلاتهم البعيدة. ومن صفاتهم أنهم لا يَغزون ولا يُغزون ولا يستعملون السلاح إلّا للقنص وهم حيث حلّوا في مأمن من غزوات البدو لأنهم في ذمام الجميع ويعتبرون دون من سواهم من العرب رتبة ومقاماً ولا يزوَّجون ولا يتزوّجون إلا من بعضهم البعض ومن أكبر العار عند العرب أن يسطو أحدهم على صلبي.

أما سائر البدو فما يصدق على قبيلة منهم يصدق على من سواها من حيث المشارب والملابس والمآكل. وقد يكون للمنازل تأثير وقتي، فعلى سواحل الأنهر

مثلاً يصيدون السمك ولا يذوقونه في البوادي. . . فقلة تمدنهم تقضي بقلة حاجاتهم واستمرار حالة بلادهم يقضي ببساطة معيشتهم فهم الآن يأكلون ما أكلوا في زمن الجاهلية ولكنهم لا يشربون ما شربوا. فأخص غذائهم اللبن واللحم من محصولاتهم ومقتنياتهم والخبز والتمر والأرز يأتون به من حيث سابلوا وقد يستخرجون النبتة الطبيعة كالفطر والكمأة ويقتنصون الأرانب والغزلان واليربوع وطير البرّ ويلتقطون الجراد في شهري آذار/ مارس، ونيسان/ إبريل.

**كيف يأكل البدو**: فإذا أقبلوا على الطعام لا يعتلون الكراسي جالسين إلى موائد مغشّاة بغطاء من الإبريسم أو الكتان وبأيديهم السكاكين والمشكات بل يبسطون الخوان وهو بساط مصنوع من الشعر أو السفرة وهي عندهم حصير مدوّر مصنوع من سعف النخل أو صدور النحاس في المنتديات الكبيرة والمضايق تحضر عليها أنواع الطعام دفعة واحدة فيقيمون حولها على شكل دائرة جاثين على ركبة واحدة لا يمسون الطعام باليسرى بل باليمين والمواعين مشتركة بينهم حتى إذا انتهوا منه مسحوا أيديهم بلحاهم والسلام. أما بيوت الشيوخ والكبراء فيزاد فيها على ذلك بأن يُطاف بالإبريق على الحضور قبل الطعام فيغسلون أيديهم أو يبللونها. وبعد الفراغ منه قد يغسلون بالماء والصابون. وفي الولائم أو حيث حضر ضيف كريم وذبحت الذبائح وضاق الخوان عن الحضور يجلسون إليه أفواجاً كلما انتهى أحدهم قام ولا يكاد يقوم حتى يحل محله آخر إلى أن ينتهي الجميع.

**كيف يلبسون**: ملابس البدو كمآكلهم أوفق ما أمكن لمقتضيات معيشتهم وحالة بلادهم. فلو وضعنا الأوروبي في البادية لستر رأسه بما ندعوه بالكوفية ونشدّها بالعقال. فإذا ستر البدوي رأسه على ما تقدم ولبس القميص الطويل وهو الثوب عند أكثرهم والدشداشة عند بعض والدرَّاعة عند آخرين وشدّ وسطه بحبل أو خيط ولبس العباءة فوق الثوب فقد تمّت كسوته وإذا زاد الزبون وهو القفطان المعروف عندنا بالقنباز أو الغنباز فهو لباس العرس. وقلما تغسل الثياب بل تبقى على جسد صاحبها حتى تبلى.

أما العباءة فلها عندهم شأن بل شؤون يسترون بها من حَرِّ الشمس ويتّقون

بها قرَّ الشتاء وهي وسادتهم في الصيف وفراشهم وغطاؤهم في الشتاء وإناؤهم إذا حملوا شيئاً وكثيراً ما يحملون فيها اللحم والأرز والطفل وكبش الغنم والقنيصة وكل ما تتناوله يدهم فما أقدر الإنسان على حصر حاجاته فهي بمقام السترة والوسادة والفراش واللحاف والكرسي والسجّادة ولا بأس لو قلنا: والعدل والقِدْر في بعض الأحيان.

**أسلحتهم وحروبهم**: للبدو في الغارات والغزو عادات ألفوها. وهم يستعملون السيف والطبر (الفأس) والمزراق وأكثر اعتمادهم على الرماح وقد كثر الآن استعمال البنادق. فهم دائماً بين مهاجم ومدافع... فإذا قصدوا الغزو وكان العدو كثيراً ساروا إليه شرذمة قليلة وإلا فجماهير كثيرة وهم على كلتا الحالتين يسيرون إما لكسْبٍ يأْملونه وإما لثأر يأخذون به. ولهم في الحرب فنون خاصة اتخذوها منذ القديم. فمن ذلك أنهم إذا تاقوا إلى الغزو واشتاقوا إلى السلب أرسلوا السوابير أو «الطواريش» وهم الرقباء أو الجواسيس فإذا اتتهم «العلوم» أي الأخبار بما أنسوا منه خيراً ساروا بين فرسان ومشاة ومراديف وظلوا في أكثر الأوقات فرقة واحدة حتى يبلغوا حيث يقصدون فتتقدم الفرسان وتتخلف عنهم جماعة «المراديف» وهم بعض ركبة الإبل يسيرون زوجاً زوجاً على كل بعير وتتبعهم المشاة فإذا تراءى لهم «الزول» عن بُعدٍ قبل أن يفرقوه أطلعوا من الفرسان «طليعة» قليلة تغير بخيلها وهم يتبعونها خبباً حتى تدنو إليه دنوّاً تتحققه به وبين الفريقين مرامي أرماح كثيرة فتنحرف «الطليعة» شرقاً أو غرباً أو جنوباً أو شمالاً على غير الطريق المتخذة. ولكل من هذه المراكض معانٍ معلومة عندهم وهي التي يدعونها «بالعرض» وعرض الجيوش مأخوذ منها فإذا عرفوهم حلفاء عرفت الحملة كلها وتدانوا دون أن يتماسوا بضرّ. وإلا فإنهم يتفرقون فرقاً أو يسيرون فرقة واحدة حسب اقتضاء الموقف والكثرة وينتشب القتال بينهم فإن لم يظفروا بهم عادوا خاسرين وإن ظفروا تولوهم وخلّفوا جماعةً تسوق ما تصيب من الإبل والماشية والفرسان تتبع الفرسان فمن قتلوه منهم أو أسروه أو طرحوه عن ظهر فرسه أخذوا فرسه وهو «القليعة» عندهم يحسبونه خير مغنم. فإذا رجعوا على قومهم ظافرين غانمين لاقتهم النساء بالهلاهل والأهازيج وخرج إليهم من تخلّف من قومهم

يهنئونهم بالظفر ويصرخون «الحذيّة الحذيّة» (وهي ما يعطيه السالب لصاحبه من السلب) فيعطونهم ولا يبخلون وربما أعطى السالب سلبه فما كفاه فأعطى شيئاً من سلاحه أو ملابسه. والغالب في قسمة السلب أن يأخذ الشيخ أو الأمير خمس المسلوب كله ويوزّع الباقي للفارس سهمان ولمن سواه سهم واحد إلا «القلائع» فهي لأصحابها. وقد يرجعون مخذولين فتتلقاهم النساء بالشتائم والأقسام أن يرجعوا ويأخذوا بالثأر فيرجعون ويقاتلون أشدّ قتال حتى يظفروا أو يتلاشوا وقد ترافقهم النساء أيضاً تنشطهم «تنخّيهم» وتضمد جراحهم وتسقيهم الماء وربما قاتلن معهم. أما الأسير فلا شرع له فقد يقتلونه وقد يطلقونه وقد يمسكونه حتى يفتدي نفسه.

**البدويات**

هنّ في البادية أكثر من الرجال عدداً وبالطبع ألين جانباً وأرقّ طبعاً ولسنَ مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة. يطقن التعب وتحمّل المشاق وتجسّم الصعاب ويشاطرن رجالهنَّ كل أنواع المتاعب فيقمن بكل ادارة بيوتهن ويعنّهم حتى في غزواتهم ولهنّ بهم تعلق شديد. وهنّ مع ذلك يؤثرن حياة إخوتهنَّ ووالديهنّ على الأزواج وبنوهنّ في المقام الأول بخلاف الرجال فأول مقام عندهم لإخوانهم ووالديهم وعلى ذلك يقولون إذا ذهب الولد والمرأة معاً فلهما عوض وأما الأخ فلا عوض له... وعندهنَّ الزيّ (أو المودة) على نمط واحد يكاد لا يتغيّر. فالبنات البكر في أكثر الأوقات يقصصنَ الغرّة أو الطرّة ويبرزنَ شعورهنَّ ما فوق الجبين إلى قرب قمّة الرأس. وإذا تزوجن أرخينها وسترنَ شعورهنَّ بالمنديل وهي علامة فارقة بين البكر والثيّب...

أما ملابسهنّ فهي سهلة المنال لا تتكلفهنّ مالاً كثيراً ولا وقتاً طويلاً وهنّ وإن تزينَ بأفخر ما عندهنّ رشيقات الحركة لا يلجئهنَّ ضغط الملابس إلى الكلف والاستثقال. وللموسرات ونساء الأمراء والشيوخ نوع من الوشاح يعرف «بالهاشي» وهو ثوب طويل الأذيال كثير الاتساع فوق الجسم أردانه قصيرة إلى ما فوق الساعد ولكنها قد تبلغ في الاتساع ذراعاً فأكثر. وقد يلبسنَ العباءة والزبون

(القفطان) ويحتذين الخف الأسود، ومنهن من يتبرقعن خارج الخدر ويسدلنَ على وجوههنّ المنديل الأسود. ويؤثرن في الملابس كثرة الألوان وأحسنها الأحمر وقد يجعلن في الثوب الواحد عشرة ألوان فأكثر. ويلبسن من الحليّ الضخم الثقيل كالخلاخل والحجول الكبيرة يصغنها ذهباً وفضة كلٌ على ما وسعته حاله ويعلقن الخزّامات المتسعة بأنوفَهنَّ وأكثرها مصوغ من الذهب مرصّع بالحجارة القليلة الثمن كفصوص الفيروز الصغيرة ولهنّ أقراط طويلة عريضة قد تبلغ القيراطين طولاً بعرض قيراط واحد. ويصغن الذهب والفضة عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى ويكثرن في القلادات من النقود المضروبة القديمة كالغازي والمحمودي ينظمنها صفوفاً ويدلينها من العنق إلى الصدر. ولهنّ من أنواع التزيّن الحناء فهي شائعة الاستعمال فيصبغن بها الأكف والأصابع والأظافر وأخمص الأقدام وأصابع الأرجل. والخضاب الأحمر على الشفاه. وكحل العيون بالإثمد وقد يزججن حواجبهنّ ويطلين شعورهن بالدهن المصفّى ولهنّ ولع خاص بالوشم يحلّين بالصبغة الزرقاء والسوداء جلود أيديهنّ بنقوش مختلفة ويجعلن نقطاً صغيرة في منتصف الجبهة وطرف الأنف والذقن وربما وشمنَ الشفاه السفلى والوجنات والسواعد والأقدام.

أما أخلاقهنّ فهي بالجملة حسنة وخير ما يزينهنّ عزّة النفس وشدّة التعلق بالأهل والأزواج وقيامهن مقامهم في أكثر الأعمال ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهنّ. فاشتغال البدوي مقصور على الغارات والغزوات والمرأة رفيقة ومعينة له في كثير منها وجميع ما بقي مفروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة عن طلب السلب والدفاع لكانت هي ربة البيت مكفلة بكل ما تستلزمه إدارة المعيشة والتربية فاعتماده عليها تام أو يكاد يكون واعتمادها عليه ناقص.

## الأحكام

يتولاّها الشيوخ والأمراء وهي نموذج للحكم الفطري. القوة لمن غلب. فالبدو منقسمون إلى بطون وأفخاذ وعشائر وقبائل ولكل منهم كبير يحكمهم إما بقوة الإرث وإما بقوة السيف... ولا يفضل عندهم الأمير على الشيخ ولا الشيخ

على الأمير إلا بنسبة مقامه. فرؤساء نجد أمراء ودونهم أمراء وشيوخ. وهم يتمتعون بسلطة مطلقة وحكمهم نافذ وهم يقضون بما يشاؤون معتمدين على الشرع والعرف. وليس لهم قوانين مكتوبة.

**الطب عند البدو**

ومن طريف ما يرويه سليمان البستاني هذه الواقعة التي كان شاهداً على حدوثها مما يظهر معرفتهم بشيء من الطب والجراحة يتعلمونه بالفطرة والممارسة والاختبار وهي ممارسات بدائية متوارثة تعتمد الوصفات الطبية المبنية على استعمال الحشائش والأعشاب وأحياناً الرقى والشعوذات التي لا علاقة لها بالطب لا من قريب ولا من بعيد إلاّ القول المأثور الذي يركز على الإيمان ويجعله الطبيب المداوي الذي يقول: «آمن بالحجر تُشفى»! أما الطب فأكثره من اختصاص النساء وأما الجراحة فهي من اختصاص الرجال. وهناك شيء لا بد من الإشارة إليه وهو أن المناخ والبيئة الصحراوية القاسية تكسب أجسامهم بعض المناعة. ومما يذكره المقريزي[1]: «أن عمر بن الخطاب (رض)، أنه سأل كعب الأخبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال: إن الله تعالى لّما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب أنا لاحق بمصر، فقال الذلّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية. فقالت الصحة: وأنا معك». فإن خشونة معيشتهم وكثرة تنقلهم تمنعان عنهم الأمراض فإنهم لا ينشقون إلا الهواء الصافي ولا يكثرون من خليط المآكل وإذا بلاهم المرض تحملوه بالصبر والتجلّد. ويروي لنا البستاني أنه شهد لهم أعمالاً جراحية وطبية ذات شأن. فمن ذلك مثلاً إنه في بعض الغزوات شُقّت جلدة بطن واحد منهم فبرزت الأمعاء ولم تنثلم فألقوه على ظهره فاستقرت الأمعاء في محلها فأتوا بإبرة من إبر الخياطة وخاطوا بها الجلدة وحفروا حفرة في الرمل واروه فيها إلى قرب العنق ثم حضروا على بعد يسير منه خندقاً صغيراً على شكل دائرة حوله وأتوا بالحمض وقتاد اليابس من نبات البر وأضرموا النار في الخندق إلى أن خمد اضطرامها فردّوا

(١) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، القاهرة ١٣٢٤ هـ. ١: ٧٩.

عليها التراب وتركوه وشأنه زهاء ساعتين فاخرجوه وبادروه بالمرق ولبن النياق وهو مستلقٍ على ظهره وما لبث مدة يسيرة حتى نال الشفاء التام. ولهم في معالجة الداحس[1] طريقة غريبة فإنهم يأتون ببعير ينيخونه ويفتحون فمه ويجعلون المصاب يُدخل يده فيه ويجعل الأصبع المصابة تحت لسان البعير ويشدون فم البعير لئلاَّ ينطبق ويسحق اليد فتبقى الأصبع أقل من ربع ساعة ثم تخرج والمادة ممتصّة منها فتطلى بالدهن وتربط مدة وتذهب العاهة. والكيّ عندهم شائع الاستعمال فيعالجون به الناس والخيل والإبل وسائر الحيوان على أنه أنجع الأدوية والأمراض العصبية. ولهذا قيل قديماً: آخر الدواء الكيّ.

## (٢) البدوي
## أو الحياة الفطرية في الصحاري العربية

يتألف هذا الكتاب الذي هو من منشورات مجلة «مرآة الغرب» جمعه وبوّبه ونسّقه اسكندر يوسف الحايك من بيت شباب، مطبعة البستاني طريق الشام ـ بيروت [لا. ت] من خمسة فصول ومقدمة موجزة يفيدنا فيها أن الكتيّب يتناول حياة البدو في سيناء:

**أولاً**: لغتهم وديانتهم ومعارفهم وزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم وعاداتهم وخرافاتهم وقضاتهم وشرائعهم وأحكامهم الخ..

**ثانياً**: السكان الأصليون والحاليون في كل بقعة من البادية؛ من أين أتوها وإلى من ينتسبون.

**ثالثاً**: غزوات القبائل بعضهم لبعض في كل منطقة على حدة.

**رابعاً**: الحوادث التاريخية المهمة التي حدثت في كل بقعة.

---

(١) الداحس: ورم حار يعرض من انصباب مادة دموية غليظة تجتمع في الأنملة بالقرب من الظفر فيحدث عنها وجع شديد؛ وتمدّد ويسقط منها الظفر إذا عمّ الورم كل اصله. وربما حدثت عنه الحمّى. والعامة تسمّية (الدوحاس)؛ محيط المحيط ـ أو «الضوحاص».

**خامساً**: نبذات تاريخية سياسية ودينية لها علاقة بهذه المناطق.

والقسم الأول يتناول البداوة في شبه جزيرة سيناء التي يقسمها إلى ثلاثة أقسام: بلاد الطور ـ بلاد التيه ـ وبلاد العريش.

ولا بأس من أن نتناول بإيجاز أهم ما يذكره في كتابه هذا عن حياة البدو وعاداتهم وغزواتهم وحروبهم وطعامهم وكسائهم وأخلاقهم وما إلى ذلك من أمور امتازوا بها وصفات عُرفت فيهم.

كما أنه يتناول إضافةً إلى ذلك كله، شيئاً من ألفاظهم وأمثالهم وأشعارهم بلهجتهم المحلّية والغناء والرقص (كمثل رقصة السيف التي اشتهرت فيما بينهم) وحداء الإبل: وهو الغناء للإبل وهي تشرب أو تسير.

كما ينشر بعض الصور للبدوي والبدوية في لباسهم وللخيام وللإبل، ولبعض حلقات الرقص وسوى ذلك ولكنها صور بدائية لأنها أخذت في مطلع هذا القرن يوم لم يكن فن التصوير الفوتوغرافي قد تطوّر كثيراً. ولا بأس، كما ذكرت، أن نستعرض أهم ما يسجله اسكندر يوسف الحايك في كتابه هذا مما قد شاهده وخبره بنفسه من مخالطته للبدو في سيناء.

**فعن أخلاق** بدو سيناء وأوصافهم الخلقية يقول (ص٨):

«لقد اشتهر البدو في كل زمان ومكان بحب الضيافة، والكرم، والغزو، والنجدة، والأخذ بالثأر، ومراعاة الجار وتعظيم الجميل، وتكريم الإبل، واحترام العرض، والوفاء بالعهود، والافتخار بالنسب، والشجاعة، وعلو الهمة، وبذل المعروف، والأنفة، وعزة النفس، وعدم احتمال الضيم، وكره التقيد بنظامٍ ما، والجرأة في طلب الحق، والأريحية، وحب المساواة والحرية، والشورى في الشؤون العمومية».

يتضح من هذا الكلام أنه ينعت البدو بجميع الصفات الحميدة المستحبة فلا يترك صفة من الصفات الحسنة ألا ويلصقها بهم مع ما في ذلك من مبالغة وغلو.

**الضيافة**: فإذا أقبل الضيف أنزلوه على الرحب والسعة وأضافوه بالتناوب إلا إذا كان عزيزاً لديهم جميعاً فإنهم لا يراعون النوبة بل يتسابقون إلى ضيافته، فإذا اختلفوا في من يضيفه رفعوا الأمر إلى كبير القوم الذي يتولى بنفسه تسمية المضيف ولا مردَّ لحكمه النافذ. . . فيُذبح خروف ويُسلق ويُطبخ بمرقه أرزّ يوضع في قصاع من خشب ثم يوضع في كل قصعة قطع من اللحم وفي قصاع أخرى أرغفة من الخبز. فيجلسون حول القصاع فئات الجميع إلا المُضيف الذي يبقى في خدمة ضيوفه إلى أن يفرغ الجميع من الأكل ويوزع ما بقي من الطعام على النساء في خيامهن. والعادة أن كبير الضيوف يرسل من قصعته نصيباً من اللحم إلى راعية البيت. النساء لا يأكلن إلا فضلات الرجال. ومما يذكر أن اليدين والرجلين ولحم الرقبة ولحم البطن لا تقدّم على موائد الرجال بل تحفظ للنساء. ويعد تقديمها على موائد الرجال إهانة لهم، وهو يروي قصصاً تدل على أخلاقهم وصدقهم وإبائهم جديرة فعلاً بالاحترام. منها أن رجلاً بدوياً استأجره بعض العسكر لجلب بعير له من مرعى على عشرة أميال من المكان الذي هم فيه بأجرة ريال واحد فذهب في أثر البعير فلقيه على نحو خمسة أميال من البلدة فأتى به إلى صاحبه وقال له إن لقيه بمحل كذا فما استحق غير نصف الأجرة التي اشترطها لنفسه وأبى أن يأخذ إلا نصف ريال.

وهم يمجدون البطولة والشجاعة ومن عادتهم أنهم يسقون أطفالهم من ريق الفارس الشجاع وذلك بأن يأخذ الفارس ريقه من فمه بحدّ السيف ويلقمه الولد أو يلقم الريق رأساً في فمه.

وإذا أرادوا الغزو ركبوا الهجن وقصدوا العدو حتى يصلوا إلى مقربة منه فيأتون منخفضاً من الأرض ويبركون الأبل ويعقلونها ويجعلون عندها بعضهم لحمايتها. ثم يتقدمون صفاً واحداً حتى إذا رأوا العدو أطلقوا عليه نيرانهم فإذا فرغت النيران حملوا بالسيوف حملة صادقة فلا يعودون إلا ظافرين أو منكسرين. وفارسهم في ساحة القتال يتكنّى باسم أخته أو ابنته فيقول أنا أخو فلانة وأنا أبو فلانة وينادي «الذبح» «الذبح».

ومن عاداتهم المشهورة الأخذ بالثأر مهما قلّ شأنه أو مهما طال عليه العهد.

فإذا مات قبل أن يثأر من خصمه خلّف الثأر لابنه ولنسله من بعده. لكنه قد يعرف حقه ويتركه.

ومن أوضاعهم الخَلقية رشاقة القدّ وخفة الحركة وذكاء العيون وسمرة اللون وقلة شعر العارضين وقنا الأنف. والجمال في نسائهم قليل ولكن يؤيد قول المتنبي:

حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسنٌ غير مجلوبِ

**ديانتهم**: «يعترف بدو سيناء بالإسلام ديناً لهم ولكن ليس فيهم من يعرف قواعد الإسلام بل ليس فيهم من يعرف قواعد الصلاة».

وهو يقول إنه بعد أن خالطهم عدة سنين لم يـرَ فيهم من يصلّي إلا نفـر يعدون على الأصابع ممن يخالطون المدن، وهؤلاء لا يصلّون الأوقات الخمسة على الترتيب بل يصلّون كلما خطر ببالهم أن يصلوا، «ولولا احتفال بدو سيناء بعيد الضحية وذكرهم النبي وحلفهم به والصلاة عليـه لما علمت أنهم مسلمـون». (ص١٦). ثم يذكر قصة طريفة جداً وهي أنه كان يتحدث مع شيخ من مشايخ الرميلات فسأل هذا الشيخ أين تذهب الروح بعد الوفاة فأجابه بأن العرب تعتقد أن الأرواح تجتمع في بئر القدس في يوم القيـامة فيـذهب الصالحـون إلى الجنة والأشرار إلى النار. وقال قيل لبدوية فجعت بابنها إن روحه في بئر القدس فذهبت إلى البئر ووقفت عند فمها ونادت ابنها باسمه فأجابها الصدى فلما سمعت الصوت ظنت أن ابنها يجيبها فرمت بنفسها في البئر وماتت. ومن ذلك الوقت وضعوا شبكة من الحديد على فم البئر...

**في معارفهم**: البدو في سيناء أمّيون لا يقرأون ولا يكتبون. وأما المدارس القائمة في مدن الطور ونخل والعريش فندر من يتعلم فيها من أهل البادية.

**الحياكة**: الحياكة من عمل النساء فهنّ يحكنَ بيوت الشَعر، والأغـطية، والفـرش والأخراج، والمـزاود، والمخالي وغـير ذلك من لـوازم الخيام والأثـاث والملابس يحكنها من شعر المعزى وصوف الضأن ووبر الإبل.

وهم يعتنون بتربية الإبل والخيل والغنم ويستولدونها ويتجرون بمواليدهـا

الذكور. وهم يجمعون المَن من شجر الطرفاء ويجعلونه في أحقاق صغيرة من صفيح ويبيعونه للسياح في السويس ومصر وللحجاج في دير سيناء. وفي أيام الصيف في موسم البلح يستخرجون النَوى من البلح ويجعلون في مكانها قلوب اللوز ثم يجعلونها في أجربة صغيرة من جلد يسع الجراب الواحد منها رطلاً أو نصف رطل ويبيعونها في السويس أو مصر ،لقاهرة وغيرها.

يسكن البدو في خيام من الشَعر تحيكها النساء ـ كما أسلفنا ـ ويبنونها على شكل ظهر الثور جاعلين أبوابها إلى الشرق. ترتفع الخيمة على تسعة أعمدة ثلاثة في الوسط وثلاثة في كل من الجنبين. وهيكل الخيمة قابل للتكبير والتصغير حسب الاقتضاء. ثم يضعون فوق هذه الأعمدة السقف مؤلفاً من «شقاق» يحيكونها من شعر الماعز، ثم الأجناب وتدعى «الرواق» تحاك من وبر الإبل وصوف الغنم وأكثرها من الصوف. ويجعلون في وسط الخيمة ستاراً يقسم الخيمة قسمين قسم للنساء وقسم للرجال. وهذا الستار يحاك من الصوف أو الوبر وأكثره من الصوف. وأما باب الخيمة فهو الوجه الشرقي كله يترك مفتوحاً إلا في أيام المطر والبرد فإنه يقفل.

وتثبّت جوانب الخيمة في الأرض بالأوتاد والحبال يشترونها من المدن أو يجدلونها في باديتهم من نبت السمار.

وهم لا يسكنون الخيام إلا في الشتاء والربيع اتقاءً للمطر والبرد فإذا ارتفع المطر وزال البرد خبّأوا خيامهم في «القرى» وبنوا لأنفسهم أكواخاً من القش وأغصان الشجر لاتقاء الحرّ والرياح تدعى «عرائش».

ومن أثاث خيامهم «المنسف» وهو طبق مستدير واسع من الخشب يقدّمون عليه الطعام للضيوف. و«حجارة الرحى» يستعملونها لطحن الدقيق. و«الغرابيل» و«الصاجات» و«الحلل النحاسية» للطبخ و«عدة القهوة» و«القُرُب» وهي آنية الماء و«الغلايين» لشرب الدخان. وأسرجة الإبل والخيل والحمير. . .

(*) من مذكرات الشيخ اسكندر الحايك، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ (لا.ن).

## (٣) رحلة في البادية

ولصاحبنا كتاب آخر هو رحلة في البادية قام بها سنة ١٩١٤ بصحبة رحّالة يسميه بالسائح هو باسيليوس كورباه من التابعية الروسية، كان الهدف من رحلته هذه دراسة حياة البدو وأحوالهم. وقد رافقهم في هذه الرحلة فريق من اللبنانيين بلغ عددهم ١٥ رجلاً. وكان يدوّن في مفكرة يومية ملاحظاته ومشاهداته التي قرر فيما بعد أن ينشرها لما تضمنته من عادات القبائل وغرائب البلدان العربية التي زارها من دمشق إلى تدمر، فدير الزور فالموصل عن طريق الجزيرة وجبل سنجار حتى حدود كردستان وبغداد وجوارها. . .

وقد قسّم الرحلة إلى ثمانية فصول كل فصل مختص بمنطقة من المناطق. وقد درس أحوال الصحراء ومجاهلها وأخلاق سكانها التي من أبرزها ـ كما يقول ـ المحافظة على العادات والتقاليد الطبيعية العربية الصرفة، والحكم البسيط العادل، والمبادلات التجارية الطبيعية التي لا يشوبها الغش ولا الخداع، والمحافظة على العرض والتمسك بالدين على غير تعصب. . . وإلى ذلك فإنه يضم بين دفتي كتابه هذا شيئاً عن تاريخ القبائل، وعلاقات بعضها ببعض، واستقلال كل منها في أعمالها، وعدل أمرائها وشيوخها وطرق التعاون بينهم، واجتماع كلمتهم في بعض الأحوال والظروف، واحترام بعضهم البعض والذود عن كيانهم وحريتهم وازدرائهم الموت في سبيل مبادئهم وشرائعهم إلى آخر ما هناك من الخصائص التي اجتهد كل الاجتهاد في جمعها دون زيادة أو نقصان.

وهو يصف (ص٢٣ ـ ٢٤) نزوله في قرية (القريتين) على مشارف بادية الشام وكيف أن أمير إحدى القبائل المدعو الشيخ محمد الملحم شيخ قبيلة الحسنى قد دعاه ورفيق رحلته إلى النزول في ضيافته فيصف لنا مضارب القبيلة ومنزل الضيافة وكيف رحبوا بهما، وكيفية تقديم الطعام فجاءوا بصينية مملوءة بلحم الغنم وقد جعلوه قطعاً كبيرة ووضعوا فوق اللحم أربعة رؤوس غنم كاملة وغير مقطّعة. . . وهذه الرؤوس لم يمدّ أحد يده إليها فسأل مضيفه عن سبب وجود هذه الرؤوس فأجابه (ص٢٨): «هي عادة القبائل في كل البادية ويقصد منها احترام

الضيف وإكرامه، إننا نقدم أربعة رؤوس إكراماً لضيف نحسبه من ذوي الطبقة العليا وثلاثة لذوي الطبقة الثانية واثنين لذوي الطبقة الثالثة ونقدم رأساً واحداً للضيوف العاديين الذين يؤموننا لحاجة كتجار السمن والصوف كما أننا نقدمه لأمراء القبائل المجاورة التي تربطنا بها علائق الصداقة والإخاء». وبعد أن فرغوا من تناول الطعام انتقلوا إلى بيت الاستقبال حيث قدمت لهم القهوة التي جرى طهيها على بعر الجمال لأن القهوة لا تكون طيبة على نار قوية فبعر الجمال ناره خفيفة.

ثم يتضح لنا من الحوار الذي يجريه مع شيخ القبيلة أن البدوي لا يفاخر بثروته أو بعلمه إنما يفاخر بالفروسية والشجاعة فهو قدير بسيفه أن يجمع ثروة إذا شاء عن طريق الغزو. والبدوي الشاب يتزوج في سن مبكّرة ما بين الخامسة عشرة ـ والعشرين. والطلاق نادر. وإنهم كانوا على خصام دائم مع الدولة العثمانية لأن ولاتها يعتقدون بأن البدو يتصفون بالهمجية والغدر. وهو يروي لنا أن أحد الضباط الأترك جاء مع نفر من جنوده يتفقدهم وقال لهم: «إننا آتون إليكم من قبل مدير القريتين وذلك محافظة على أرواحكم وأموالكم من غدر البدو فإنهم خونة أسافل لا ذمام لهم ولا وجدان» (ص٣٤).

ثم يصف لنا رحيل القبيلة وكيف تخرج الماشية لكي تشرب من برك مملوءة بمياه الأمطار فيأتي شاب وينادي الإبل والغنم قائلاً: راحلة يا راحلة يردد كلمته هذه نحواً من عشر دقائق فتأخذ الإبل بالاقتراب من البركة ثم تتبعها الغنم لكي تشرب بنظام وترتيب. ثم يصف لنا سير القبيلة بحيث تسير الجمال أولاً تحمل الخيام أو البيوت وسائر الذخيرة والأدوات ويسير قدامها خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الخامس. ثم تتبعها الماشية على اختلاف أنواعها ومعها الرعاة وعائلاتهم يتقدمهم خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الرابع وسار موكب العائلة منظماً هكذا: الحرم في خمسة عشر هودجاً وحولهن الحرس الخاص بهنّ ويتألف من خمسين فارساً من نخبة الفرسان. ثم الشيخ أمير القبيلة وإلى جانبه ابنه الصغير وكان وحيداً وأبناء عمّ الشيخ وكانوا ثلاثة وعبدان مسلّحان يحرسان الشيخ ومن حوله وفي مؤخرة الجميع سار الفرسان فرقاً فرقاً وقد امتطوا جيادهم

وتقلدوا أسلحتهم وكان عددهم ثلثمائة فارس ثم يحدثنا كيف أن شيخ القبيلة أهداه حصاناً أصيلاً وأرسل نفراً من الفرسان لمرافقتهم في رحلتهم وشكر له ذلك وأخبره أن لا داعي إلى ذلك. وكان برفقتهم ضابط تركي وأثنا عشر جندياً يعرفون الطريق. فقال له الشيخ لا أحد يعرف الطريق في الصحراء سوى العربان الذين داسوها مراراً؛ فرافقوهم حتى وصلوا إلى طريق السلطاني وأصبحوا في مأمن من كل خطر. ثم يخبرنا بأن رفيقه قد أشار عليه أن يقدم عشرين ليرة ذهبية عثمانية إلى الفرسان فرفض كبيرهم أن يأخذ المبلغ قائلاً: نحن نخدم ضيوف أميرنا ولسنا بمستأجرين والبدوي الشريف لا يقبل مكافأة على مروءته.

ثم وصلوا إلى القريتين ونزلوا هناك في خيام نصبوها وفي الصباح الباكر ذهبوا لتقديم الشكر إلى مدير المنطقة التركي الذي كان قد أوفد معهم من يقوم على حراستهم. وما أن دخلوا عليه حتى بادرهم قائلاً: «كنت مضطرب البال من نحوكم فالبدوي خائن غدّار لا يؤمن شرّه ولذلك بعثت بمن يحرسونكم ويرافقونكم في رجوعكم» (ص٤٠).

واضح من كلام المأمور التركي أن نظرة الأتراك إلى البدو كانت نظرة سيّئة وهم لا يأمنون شرّهم وكان البدو كذلك يكرهون الأترك كما مرّ معنا سابقاً.

ولما عرض الرحالة الأجنبي على المدير أن يقدم بعض المال إلى الجنود الذين قاموا بمرافقتهم وحراستهم رفض لأنهم جنود مكلّفون بالسهر على الأمن العام ولم يفعلوا سوى واجبهم وهو لا يريد أن يتعوّدوا عادة كهذه.

ثم انطلقوا إلى زيارة منطقة (قصر الحير) لمشاهدة آثارها التي تعود إلى عهد زنوبيا ملكة تدمر التي تعرف بمدينة الورد بسبب لون حجارتها. ومما يروى أنه كان في ذلك المحل خزان كبير لإحراز المياه التي جرّتها زنوبيا من عين الفيجة إلى تدمر وما زالت آثار القناة الحجرية موجودة.

ثم انتقلوا إلى «القلعة البيضاء» ودعيت كذلك بسبب لون جدرانها وهي نقطة عسكرية ومحطة للقوافل التي تتعاطى المبادلات التجارية مع القبائل العربية ومع دمشق وحمص وحماه وغيرها من مدن الداخل. وفي هذه القلعة بئر ماء سهّل

لهم سقاية دوابّهم. ومنها إلى تدمر فيصف لنا آثارها والدور الذي لعبته في التاريخ.

ومن تدمر ساروا إلى دير الزور وهو يروى ما صادفه من أحداث في هذه الرحلة وكيف أنهم تعرضوا إلى لصوص وقطّاع طرق ولكنهم تغلبوا عليهم. ثم يصف لنا غزوة حصلت بين قبيلتين عند مكان يدعى بئر الجديد فيقول: رأينا على مسافة قريبة عدداً كبيراً من الفرسان وكلهم من جماعة العربان وكانوا ينشدون الأناشيد الحماسية. ثم ما لبثنا أن شاهدنا فرساناً آخرين قادمين من الجهة المعاكسة. وحوالي الساعة السادسة (صباحاً) تبادل الفريقان اطلاق البنادق ثم ترجل جميعهم والتحموا وأعملوا بالرقاب سيوفهم ورماحهم وعند الساعة الثامنة صباحاً أوقف القوم عراكهم. ثم يخبرنا بأنهم زاروا أرض المعركة بعد انتهاء القتال وشاهدوا الكثير من القتلى والجرحى وكان رجال كل قبيلة يجمعون جرحاهم لنقلهم إلى مضاربهم أما القتلى فيتركون في أرض المعركة إذ كان من عادة العرب أن لا يدفنوا قتلاهم. ثم ذهبوا لمقابلة الأمير ربيعة بن حسان وهو شيخ إحدى القبيلتين المتحاربتين وسأله الكاتب عن أسباب هذه المعركة. فقال: إن أسبابها عديدة وأهمها الضغائن الموروثة عن آبائنا وأجدادنا وهي تتجدد كلما التقينا وكثيراً ما نتقاتل في هذه البقعة لأننا مضطرون في مثل هذه الأيام إلى ارتياد الأراضي الكثيرة الكلأ. ثم الانتقال إلى (كباكب) قبل الوصول إلى دير الزور التي كانت في تلك الأيام متصرفية تابعة رأساً للآستانة وكانت محطةً للعربان يبيعون صوفهم وسمنهم وغنمهم في أسواقها ويشترون حاجاتهم ويستلفون من تجارها المال على المحاصيل. وفي دير الزور قابلوا المتصرف الذي رحّب بهم واستقبلهم استقبالاً حسناً وقالوا له إنهم يريدون السفر إلى الجزيرة وطلبوا مساعدته على تحقيق ذلك ولكنه أبلغهم بأن السفر إلى الجزيرة محفوف بالمخاطر ويجب صرف النظر عن ذلك وروي لهم أحداثاً حصلت تظهر المخاطر من القيام بمثل ذلك؛ ولكن كل ذلك لم ينفع لأنهم أصروا على متابعة السير إلى الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات عن طريق جبل سنجار مروراً بنهر الخابور ثم النزول عند عرب الجبور. وهكذا انطلقت الحملة ـ كما يسميها ـ وهي مكونة من ١٥ رجلاً. عبروا جسر الفرات

منطلقين نحو الجزيرة وقد دفعوا الرسم المفروض من الحكومة: أي بشلك عن كل جواد وبشلك عن كل بغل وأربعة متليكات عن كل حمار ومتليكين عن كل رجل ـ وهكذا يكون الرسم على الحمار ضعف الرسم على الرجل ـ وهذا الرسم هو رسم المرور على الجسر. نزلوا على نهر الخابور حيث علموا من أحد العربان أن الطريق الشرقية إلى الموصل التي كانوا يقصدونها وعرة ودونها مخاطر وأن قبائل البدو من عرب الجبور وعرب الجعافرة وشمّر وعنزة يعتدون على المسافرين وأن جماعة اليزيديين المقيمين في وادي سنجار هم قومٌ كفرة يعبدون الشيطان لا رحمة في قلوبهم ولا ذمة ولا وجدان ولا شرف يغدرون ويسلبون ويفتكون بالناس. . .

ثم يذكر لنا الأماكن التي نزلوا فيها مثل «المرقدة» و«شدادي» والأحداث التي صادفتهم، حتى وصلوا إلى «خوزية» بعد أن عبروا إلى الضفة الشرقية من نهر الخابور. في هذه المنطقة يكثر الجراد والذباب الأزرق الذي يقول عنه إنه مخيف فإذا لسع قتل. ثم نزلوا في ضيافة شيخ إحدى القبائل هناك الذي يدعى الشيخ محمود سلطان والذي أرسل ابنه للترحيب بهم. وحدث أن أحد فرسان الأمير كان سيقيم حفلة زواجه في تلك الليلة فدعوا إليها وهو يصف لنا ذلك كما يلي: في وسط باحة فسيحة وسط المضارب نصبوا خيمة صغيرة معدة لإقامة العروس قبل الزفاف، ثم جاء شيخ الدين وكتب كتاب الزوجين، ثم أخرجوهما إلى الساحة حيث كانوا قد أعدوا عدة الألعاب الرياضية التي يقوم بها العربان في الحفلات الزوجية بعد أن وضعوا العروسين في خيمة. . . ثم اجروا سباقاً مصحوباً بلعب الرمح والسيف إلى غناء النسوة ولعب الجريد فإطلاق الرصاص. . . إلى إجراء مباراة في قطع الأخشاب بالسيف وللفائز جائزة هي خمس نعجات. . . ثم يطوف بهم الأمير على بعض بيوت القبيلة فيطّلعوا على حياة البدو وطرق معيشتهم وما يملكون من الماشية. . . وهو ينقل لنا عن أمير القبيلة (ص٨٣) أن القبيلة تتألف من أربعة أقسام: ١ـ العائلة والعبيد، ٢ـ حرس العمارات، ٣ـ الجيش المسؤول عن حماية القبيلة جمعاء (الفرسان)، ٤ـ الرعاة وهم المكلفون برعاية الحلال (المواشي). ثم يسترسل في وصف مهام كل فريق وما يملكه من متاع وما هي الأعمال المنوطة به. وكل ما ينظم حياة القبيلة من مالية وعدلية ودفاع وضرائب

وغنائم إلى التعليم في مدرسة القبيلة. ودفاتر قيد لأفراد القبيلة وأخرى لقيد الماشية التي تملك. . . والسلاح. ثم يصف لنا ما شاهده في بيت الذخيرة، وقد أذن لهم شيخ القبيلة بدخوله: «صناديق على الجانبين منضدة بعضها فوق بعض حتى سقف المضرب وفي وسطه بيوت جديدة من الجلد لأجل نقل الخرطوش وبندقيات من الطراز الجديد ومسدسات وسيوف وقرب جاء ورماح». . (ص٩٦). ثم ما يلبث أن يصف لنا المدرسة: فهي خيمة طويلة عريضة فيها أستاذ وثلاثون طالباً وقد جلس جميعهم على الحضيض وما أن دخلنا حتى وقفوا على أقدامهم منادين بالصوت الواحد ليعش مولانا وحامي حمانا. وهم يتعلمون القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الشريف وفي الخيمة لوح أسود لتعليم الكتابة.

أما جنود القبيلة فهم موزعون كما يلي: ١ـ فرقة المواضي وهي الفرقة المخصصة بضرب السيف. ٢ـ فرقة الفرسان وهم الذين يحملون السلاح. ٣ـ فرقة الحرس لحراسة العائلة. ٤ـ فرقة الأبطال أي نخبة القبيلة. ٥ـ فرقة المواصلات، أي الفرقة التي تحافظ على خط الاتصال بين القبيلة وساحة القتال. ٦ ـ رجال الشيخ أي الفرقة التي يبقى رجالها حول الشيخ من أجل نقل أوامره وإبلاغها إلى الفرق الأخرى.

أرسل الشيخ أربعة من رجاله لإرشادهم على الطريق التي تؤدي إلى الطريق السلطاني حتى وصلوا إلى «أم الديبان» ثم إلى قبيلة «اليزيدية» التي يبلغ عدد خيامها الألفين وهم مختلفون عن باقي البدو فالجمال بادٍ على رجالهم ونسائهم ولون وجوههم أبيض مائل إلى الأحمر أقوياء البنية ويبلغ عددهم الستين ألف نسمة. وهنا يروي كيف أن أمير اليزيدية قابلهم وطلب منهم دفع الخوة وكيف تخلصوا من ذلك عندما أبلغوه أن السائح الذي معهم هو روسي وقد جاء من أجل مساعدة اليزيدية على حلّ خلافهم مع الدولة التركية فانطلى عليه ذلك وتخلّصوا من جزيته. ثم نزلوا في (عين الغزال) التي تبعد عن «أم الديبان» مسيرة عشر ساعات. ثم إلى (تلعفر) ومنها إلى (طيشة) حيث تعرضوا إلى ثلاثة رجال كانوا من قطاع الطرق أرادوا ابتزازهم وقد طلبوا منهم مالاً ولكنهم رفضوا اعطاءَهم المال وتغلبوا عليهم فانصرفوا. ثم تابعوا المسير إلى أن وصلوا إلى قبيلة شمّر فاستقبلهم

شيخها بالترحاب وأنزلهم بالقرب من خيمته وأقامت القبيلة ليلة طرب على شرفهم اسمعوهم فيها أنغام الربابة والقصب ورقص الدبكة. ثم في اليوم التالي جاء أمير القبيلة إلى زيارتهم ودعاهم إلى نزهة في الصحراء حيث شاهدوا الأفاعي الحمراء اللون فسأل الأمير ألا يخافون الأفاعي؟ أما تلحق الأذى بمواشيهم؟ فأجابه بأنهم يوزعون أجربة فيها مجبنة فتشم الأفاعي رائحة المجبنة فتنفر هاربة. أما إذا لدغت الأفعى أحدهم فإنهم يستخدمون النار لمداواة اللسع بحيث يخرجون المكان الملسوع ويكوونه بالنار فيبرأ للحال! كما شاهدوا بعض البدو يروضون الخيل. وهكذا فقد استبقاهم في ضيافته ثلاثة أيام كما هي العادة عند البدو. بحيث تمكنوا من مشاهدة سباق للخيل. ثم قدموا لهم العصافير على الغداء التي يصطادونها بواسطة شراك ينصبونها في الصحراء. كما قدّم لهم الأمير فرساً أصيلة. ثم طلب من الأمير أن يطلعه على كيفية فض الخلافات فيما بينهم أو بين قبيلة وأخرى. وإذا قتل بدوي بدوياً من غير قبيلته كيف يكون القضاء؟

فأجاب الشيخ قائلاً (ص١٢٧): العدل عندنا أساس كل عمل، غير أن رأس الشريف برأسين عند العرب جميعهم.

ولعرب البادية طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمها الجميع إلى يومنا هذا. فإذا وقع خلاف أو خصام بين قبيلتين تنتميان إلى أميرٍ واحد من أمراء العرب فصل الخصام في ديوان الملك الخاص.

أما القبائل المنتشرة في أراضي الجزيرة فهي لا تنتمي إلى أميرٍ من الأمراء وطريقة أحكامها هكذا:

تنتخب كل من القبيلتين المتخاصمتين اثني عشر رجلاً منها لإثبات دعواها فيكون مجموع الفريقين أربعة وعشرين رجلاً ينقسمون إلى ثلاث فئات. كل ثمانية رجال يؤلفون فئة ويكون أربعة منهم من كل فريق وقد أطلقوا على الفئة الأولى اسم «الجزّامين» وعلى الثانية «المُخبرين» وعلى الثالثة اسم «المُساوين» ويُقسم الجميع بالقرآن الشريف أنهم يحكمون بالعدل والإنصاف.

ثم يجزم الجزّامون في نوع القضيّة، ويشهد المُخبرون بما يعلمون من أثرها

ثم يصدر المساوون حكمهم الذي لا يقبل اعتراضاً أو استئنافاً أو تمييزاً.

ثم تابعوا السير حتى وصول إلى نينوى في العراق والتي كانت عاصمة الدولة الآشورية في القديم؛ حيث قبلوا دعوة ترجمان القنصلية الروسية للإقامة في القنصلية. ويخبرنا عن الحياة في الموصل وكيف أن الناس يعيشون في السراديب من شدة الحر وكيف أن أهلها كسالى لا يهتمون بزراعة الأرض رغم توفر المياه من نهر دجلة. ويصف لنا زيارتهم إلى أماكن بيع الخيل والبغال والبقر والغنم والماعز في الموصل وزيارة مقالع الرخام. كما يتناول السريان الأرثوذكس والكلدان والآشوريين واليعاقبة والأرمن والسريان الكاثوليك والموارنة الموجودين هناك إلى أن يقول (ص١٣٩): «ولكل من هذه الطوائف أكليروس يتألف من كهنة وأساقفة وبطاركة ما عدا البروتستانت الذين لا بطريرك لهم». ثم يذكر بعض القلاع والآثار التي زاروها. إلى أن يذكر أمراً غريباً وهو أن بعض مطارنة هذه الطوائف المسيحية جاؤوا إلى زيارتهم وقد دخلوا عليهم ورهبانهم «وقد تقلّدوا بمختلف الأسلحة على شاكلة أمراء القبائل العربية. والرهبان يلبسون لباساً أبيض والخرطوش حول صدورهم» (ص١٤٤).

ومن الطرائق التي يأتي على ذكرها أن مشايخ اليزيدية الذين يعرفون «بالغواله» من عادتهم وهم يجوبون القرى والدساكر أن يحملوا تمثالاً بشكل الطاووس وهو رمز إلى الشيطان الذي يعبدونه. كما يتحدث عن الديانة اليزيدية ويستشهد بالمؤرخ العلاّمة عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ ـ ١٩٥٦).

وفي الفصل الخامس يتناول الرحلة من الموصل إلى بغداد، وفي الفصل السادس يتحدث عن بغداد التي مكثوا فيها قرابة العشرة أيام ويذكر أن «عدد سكانها ٢٠٠ ألف نسمة أكثرهم من المسلمين السنيين والشيعيين وغيرهم. ولا يُستهانُ بجماعة اليهود الذين كانوا فيها إذ لم يكن عددهم يقل عن الخمسين ألفاً ويسكنون حارة تعرف بحارة اليهود. أما المسيحيون فكانوا الأقلية بين الأهالي وأكثرهم من الكلدان» (ص١٧٢).

ثم يصف طريق العودة من بغداد إلى الموصل عبر كركوك وأربيل. وفي

الفصل الثامن وصف لرحلة العودة من الموصل إلى بيروت عبر الجزيرة ونصيبين وماردين وحلب وحمص فبعلبك.

وهكذا تنتهي رحلة الشيخ اسكندر يوسف الحايك التي بدأت في القاهرة في الحادي عشر من شهر آذار ١٩١٤ حيث التقى بأحد رجال الحكم القيصري الروسي السيد باسيل أو (باسيليوس) كورباه ـ الذي تعرف إليه بواسطة أحد أصدقائه الإنكليز فقبل أن يرافقه ـ والذي جاء الشرق ليجوب البادية الآهلة بالقبائل العربية لغاية يظن أنها سياسية، وانتهت في ٢٠ تموز ١٩١٤ وقد استغرقت ١٣٠ يوماً كانت محفوفة بالمخاطر والمشقات ولكنها كانت مفيدةً لنا دون شك.

## (٤) البدو والبادية

عرف الدكتور جبرائيل جبور (١٩٠٠ ـ ١٩٩١) البادية وخبرها عن كثب منذ زمن بعيد لأنه ولد وترعرع في قرية «القريتين» التي تقع على حدود بادية الشام. وهو قد زار مناطق البادية وأقام صداقات مع أمراء ومشايخ بعض القبائل وعلى رأسهم الأمير نايف الشعلان وأولاده وإخوته. ولم يكتفِ بما جمعه من معلومات وملاحظات حول حياة البدو وطرق معيشتهم بل رجع إلى كثير مما كتبه الرحّالة والمستشرقون الغربيون وما ألّفه الكتّاب العرب حول هذا الموضوع.

وهو يعتقد بأن فهم الأدب العربي القديم وبعض مفردات اللغة العربية يستوجب فهم حياة البادية وهو يقول في هذا الصدد (ص١٧):

«ومن حسن حظ الباحثين أن أكثر البوادي العربية لا تزال كما كانت عليه منذ القدم وأن حياة أهلها البدو لا تزال هي هي وأن البدو بمختلف قبائلهم لا يزالون يتكلمون لهجات شديدة الصلة بتلك التي كان أجدادهم القدامى يتكلمونها، وأنهم لا يزالون إلى اليوم يحفظون كثيراً من المفردات الفصيحة التي نطق بها أجدادهم، بل لا تزال طرق تعبيرهم كما كانت منذ نحو ألف وخمسمئة سنة. وذلك لا يعني ـ كما يمكن أن يتوهم البعض ـ أن البدو يتكلمون الفصحى

التي نكتبها اليوم، أو أنهم كانوا يتكلمون الفصحى، بل يعني أن كثيراً من تراكيب العبارات وصور الكلام وضروب البيان من مجازات وتشابيه واستعارات مما نألفه في اللغة الأدبية اليوم، وكثيراً من المفردات نفسها التي نقرأها في أدبنا، إنما هي مستمدة من حياة البادية، وأنها لا تزال مألوفة إلى حد كبير في بيئة البادية، ولا يمكن أن تفهم تمام الفهم أو تدرك على وجهها الصحيح في كتب الأدب ودواوين الشعر دون التعرف إلى حياة البادية والإلمام بطبيعة أهلها ونباتها وحيوانها».

حاول الدكتور جبور في كتابه هذا، الذي ضمنه ٧٩ صورة عن حياة البدو والبادية، والذي يقسّمه وفقاً لأركان البداوة الأربعة وهي: البادية، البدوي، الخيمة والجمل، أن يعطي القارىء صورةً حقيقيةً عن حياة البادية وخاصة بعد أن أخذ العديد من البلدان العربية يحاول توطين البدو و«تحضيرهم». وبعد أن أخذت حياة البداوة تتعرض لغزو من حياة الحضر بعد أن أخذت معالم الحضارة تنتشر في أطراف البادية.

فالبداوة تقتضي العيش في البادية والإقامة فيها، كما تقتضي التنقل من مكان إلى آخر سعياً وراء الماء والكلأ، وتقوم على تربية الماشية وخاصة الجمال والخيل والأغنام، ومن خصائصها البارزة الغزو والسلب والنهب.

وهو يرى أن حياة العرب اليوم مطبوعة بطابع حياة أجدادهم البدو، فيقول (ص٣٤): «للحياة العربية جذور قوية في البداوة، بل لا تزال العقلية العربية الحضرية شديدة الاتصال بالعقلية العربية البدوية. ومن هنا كان من اللازم على من يحاول درس واقع العالم العربي، وفهم العقلية العربية، ومميزات الحياة أن يرجع إلى أصول هذه الخصائص والمميزات في البادية وفي الحياة البدوية... فالروح القبلية ومنها التكتّل العائلي والتزعّم العشائري والنزعة الفردية والمنازعات في سبيل التزعم والرئاسة، كل هذه وغيرها ترجع بأصولها إلى النظام القبلي وأثر الحياة البدوية. كذلك يرجع الكثير من العادات والأخلاق العربية إلى أصول معروفة ومألوفة عند البدو ولا تزال مرعية حتى اليوم، ومنها قضايا الثأر والعرض والجيرة والفخر والذمّ والكرم وحماية الدخيل والفروسية والإقدام».

## البادية

في (ص٤٦ ـ ٤٧) يصف لنا البادية وخشونة الحياة فيها. يصف أرضها وأجواءها ومشاهدها، زرعها ونباتاتها وحيواناتها وطيورها. وكثيراً ما يستشهد بأبيات من الشعر العربي القديم لشرح أسماء الأشجار والنباتات أو الحيوانات. كما يستشهد بالتوراة وبآيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة وبالأمثال الشعبية على شرح أسماء هذه النباتات، وهو لا يكتفي بذكر أسماء هذه الأشياء الصحراوية بل يصفها وصفاً دقيقاً فيذكر لنا طول الحيوان وحجمه ونوعه وشكله ولونه وماذا يأكل وكيف يتناسل وكيف يعيش وبعض خصائصه ومميزاته ويفرّق بينه وبين ما شابهه من الحيوانات ويصوره لنا بالإضافة إلى ذلك كله.

## الجمل

الجمل ركن من أركان البداوة الذي لولاه لتعذر على البدوي أن يعيش في الصحاري فهو يحمل له بيته بشققه وأعمدته وأطنابه وأوتاده وما فيه من أمتعة ومؤونة وفراش. وتستطيع البدوية أن تركب في هودج يوضع على ظهره وتجعل له سقفاً من قماش يقيها الحرّ في الصيف فيمشي الجمل بها وكأنها في خيمتها. . . وقد خص هذا الحيوان بالصبر على العطش وقتاً طويلاً، وبالقناعة بالخشن الشائك من العشب طعاماً، بحيث سهل عليه احتمال العيش في البادية. كما قيّض له من اتساع المناسم في أرجله ودقة تركيب قوائمها ما يسّر له السير في أرجائها ذات التربة الرملية أو الكلسية اللينة. وكذلك هيىء له من مشفرٌ يكسوه الشعر الخشن القاسي لجسّ النباتات الشائكة واقتلاعها أو قطعها، ومن فم ذي تركيب خاص لمضغها واجترارها، ما جعله يعتمد على تلك الأنواع من النباتات التي تعيش في البوادي والأراضي المقفرة ويكتفي بها، وهو فوق ذلك يكتفي بالقليل من الماء إذا قيس بما يحتاج إليه حيوان في مثل حجمه وجد في مثل مناخ البادية الحار.

وإذاً فالجمل هو الذي مكّن للبدوي العيش في البادية، بل لعلّه هو الذي دعاه إلى العيش في البادية. فالبدوي يشرب لبنه ويحيك وبره ويأكل لحمه وشحمه ويشعل بعره ويستخدم جلده وكانوا قديماً يكتبون على عظمة كتف البعير.

إلى أن يضيف قائلاً (ص١٧٦): «ولقد نفذ الجمل إلى صميم حياة البدوي الاقتصادية فهو أساس الثروة عنده. وكان كل شيء في البادية ـ حتى زمن قصير ـ يثمّن بالنسبة إلى هذه الوحدة أي قيمة الجمل. فالدية وهي ثمن القتيل لا تزال إلى اليوم تدفع بعدد من الإبل كما كانت تدفع زمن الجاهلية... والمَهر وهو صداق العروس يدفع بعدد من الجمال تبعاً لمكانة العروس وأهلها وقدرة العريس... حتى الخيل فإنها تثمّن أحياناً بعدد من الجمال. والبدوي يقدّر ثروته وغناه بما عنده من الجمال بحيث يقولون فلان يملك كذا من الإبل. إلى أن ينهي كلامه على الجمل فيقول (ص١٨٥ ـ ١٨٦):

«ويحسن أن نختم هذا البحث عن الجمل في أنه ليس هناك من حيوان نال من عناية علماء اللغة أو حلّ مكانةً في معاجم اللغة وآدابها مثل ما نال الجمل من علماء العرب وحلّ في لغتهم وآدابهم، فقد تعددت أسماؤه وصفاته بحيث بلغت المئات. وتوسع في وصفه الشعراء القدامى ودارت حوله كثير من التشابيه والاستعارات والأمثال. كما ذهبت معاجم اللغة إلى أن اسمه مشتق من الجَمال لأن العرب يحبون الجمل جَمالاً وزينة ومنه قولهم امرأة حسناء جَملاء... أما وصف النياق في الشعر العربي القديم لا سيما الكريمة منها فيكاد يطغى على كل شيءٍ ويستأثر بمعظم القصيدة في كثير من الأحيان كما نرى في شعر طرفة بن العبد ولبيد والراعي وذي الرمّة وسواهم. ومن هنا الأهمية التي نعلقها على دراسة البداوة وفهمها فهي الوسيلة الكبرى التي تيسّر على الطلبة فهم الأدب القديم على وجهه الصحيح».

واضح من هذا الكلام أن الدكتور جبور، كونه أستاذ جامعة، التفت إلى دور الجمل في اللغة والأدب هذه الناحية التي لم يتطرق إليها سواه ممن تناولناهم.

## البدوي

في كتاب الدكتور جبرائيل جبور كلام كثير يدور حول البدوي: حياته وعاداته، طعامه ولباسه، تقاليده والأساطير التي يؤمن بها، زواجه وطلاقه وديانته. كما يبحث في أنساب البدو فيتناول القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر والفصائل وما إلى ذلك، وهو يقسم البدو إلى ثلاثة أقسام.

يقول (ص٢٠٩ ـ ٢١٠): «والبدوي اليوم على أنواع: بدوي محافظ على بداوته، بعيد النجعة في باديته لا يربي من الماشية سوى الإبل وبعض الخيل. وآخر له اتصال بالقرى والحواضر القريبة من البادية، وقد شرع يعتمد على تربية الغنم أكثر من اعتماده على تربية الإبل، فدفعه اعتماده على تربية الغنم إلى أن لا يبعد نجعته في البادية كزميله صاحب الإبل. وثالث لزم حدود البادية والأراضي القريبة في القرى والحواضر، واقتصر تنقله على المناطق والأراضي التي تقع بين تلك القرى والحواضر المتاخمة للبادية، واعتمد تربية الغنم من الماشية لعيشه واقتنى الخيل لحماية نفسه من القبائل القوية، دون أن يلتفت كثيراً إلى تربية الإبل إلا ما يكفيه منها لحمل أمتعته وخيامه وأثاثه حين ينتقل من منتجع إلى منتجع، وأنشأ في الوقت نفسه شيئاً من الصلات مع أهل الحواضر والقرى لبيع خراف أغنامه وسمنها وصوفها، وعاش أكثر أيامه قريباً من الحواضر يتردد إليها كثيراً، وربما بلغت صلته بأهلها إلى درجة أن عقد مع بعضهم شركة بملكية الأغنام، وأصبح سهلاً عليه أن يستقر إذا دعت الحاجة إلى أن يصبح مع الزمن من أهل الحضر».

## البدويّة

أما البدوية فهي التي تهتم بشأن العائلة وتتولّى المهام البيتية لبناء الخيمة وتدبير أمور المنزل وتربية الأولاد. هذه واجباتها أما حقوقها فهي ليست كثيرة: بإمكانها أن تستقبل الضيف في غياب زوجها وتعتبر كربّ البيت في غيابه. ولها الحق في تسمية أولادها، وهي في الغالب تختار الاسم الذي يوافق الظرف الذي ولد فيه ولدها، فتسميه (سهلاً) إذا كانت ولادتها سهلة، أو (سهيلاً) إذا كان نجم سهيل طالعاً، أو مطراً إن كانت السماء ممطرة، أو (زعلاً) إذا كانت مغاضبة لزوجها.

## القضاء عند البدو

ليس عند البدو قانون مدوّن يرجعون إليه ويعتمدونه أو شريعة مكتوبة يلتزمون بها أو محاكم مدنية بالمعنى المألوف عند الشعوب المتحضرة. شريعته هي

شريعة العرف والعادة. وقضاؤهم إجمالاً عادل ونزيه. فالقتل مثلاً لا يحكم على مرتكبه بالقتل، ولكن يحكم عليه وعلى ذويه بدفع الدية وهي عظيمة. والسرقة لا يحكم عليها بقطع اليد ـ كما تقول الشريعة الإسلامية ـ ولكن بردّ المسروق وتغريم السارق. وفي حال القتل يحق لقريب المقتول أن يثأر من القاتل أو من ذويه، أو أن يعقر حلال القاتل أو حلال أهله من خيل وإبل طيلة الأيام الثلاثة الأولى وثلث الرابع بعد الجرم. ويعود هؤلاء بدورهم فينتقمون، ومن هنا هذه الحزازات الدائمة بالنفوس وهذه الثارات التي يؤخذ بها، وهذه الحروب المتواصلة بين القبائل.

والمهم في القضاء عندهم أن يأتي المدعي بالبيّنة أو الشهود، فإذا لم يكن هناك بيّنة أو شهود وكان المتهم لا يزال مصراً على الإنكار كلفه القاضي أن يحلف اليمين، وهذه القاعدة تتفق مع الشريعة الإسلامية التي ربما قامت على عادة بدوية قبل الإسلام وهي «البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر». ولهم في إيمانهم تعابير خاصة يقسمون بها أحياناً وهم يخططون على الأرض بعصاً حين يتلونها. وفي بعض الأمور الهامة قد يلجأ القاضي إلى البشعة ولا سيما إذا طلبها المدعي حين تنقصه البيّنة والشهود، وذلك أن المتهم يُستَدعى فإذا أنكر عرض عليه أن يُبشَع، والبشعة هي أن يؤتى بالمدعي والمدعى عليه إلى خيمة القاضي، فيعمد هذا إلى النار التي بين يديه في فناء الخيمة، فيدس فيها آلة من حديد كَيَد المحماص العربي التي تقلّب بها القهوة عند تحميصها. وهي كناية عن قضيب من حديد بطول الذراع، آخره مستدير رقيق غير مجوّف، ويبقى طرف هذه الآلة في النار حتى تحمى أو تحمر قليلاً فإذا حميت أشار إلى المتهم أن يفتح فَاهُ ويمد لسانه لكي يلمسه بها ـ يَبْشَعَهُ ـ فإذا لم تؤثر بلسانه كان بريئاً وإلا فهو مجرم. وإذا ظهر أنه بريء وأعلن القاضي ذلك، عمدت فتاة من جانب الخيمة فزغردت إعلاناً بذلك، وأخذت مكافأتها من المتهم. ودفع المدعي رسم الحكم. والظاهر في مثل هذه الحالة أن القاضي يستعين بعلم الفراسة وعلم النفس، ويبني حكمه على ما يستنتجه من تصرفات المتهم وسلوكه تجاه هذه المؤثرات، وطمأنينته إذا كان بريئاً بحيث لا يظهر عليه الخوف، ولا ييبس فمه أو يجف ريقه، فلا تؤثر اللذعة

السريعة بلسانه، وإذا كان بالفعل مجرماً فمن الطبيعي أن يخاف وينشف ريقه ويظهر على وجهه الوجل، وتؤثر الحديدة المحميّة بلسانه، ويحكم عليه، ولا بدّ لنا من الإشارة مرّة ثانية إلى أن البشعة كانت لا تجري عند المحاكمة إلا في حالات نادرة. وقد منعتها الحكومات العربية حيث استطاعت.

## صفات البدوي

يفيدنا الدكتور جبور (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧) أن البدوي عموماً هادىء الطبع والأعصاب بخلاف ما يزعم الرحّالة الفرنجة، وبرغم ما يبدو من سرعة تأثره إذا اندفع إلى المطالبة والأخذ بالثأر.. ولعلَّ جو البادية علّمه الصبر واحتمال المشقات، بل لعلَّه تعلم الصبر من الجمل الذي اقترنت حياته به... وهو إلى ذلك حاد الذهن سريع الخاطر. والبدوي أيضاً ساذج وبسيط ينقاد إلى سليقته وأحياناً يصدّق الخرافات والأساطير التي تروى له، وهو متقلّب يقف مع الواقف ويميل مع مصلحته، وهو مغامر شجاع تعوّد على الغزو والنهب والسلب. وخلاصة القول إن البدوي محب للحرية والانعتاق من القيود والقوانين يعشق حياة البادية وهو كريم يحب الضيف ويفاخر بذلك ويراعي حماية الجار والمستجير. وفيّ في ولائه للقبيلة وللعصبية القبلية فخور بها.

ثم يقول (ص٢٥٧): وللبدوي إلمام بالأنواء ومواقع النجوم والتيارات وتقلّب الطقس خبير بالقيافة، أي تتبع الأثر، مما يساعده على معرفة السبل في الفيافي والاهتداء إلى الأماكن التي فيها الماء والكلأ.

ثم يضيف: «ولا بدّ لي في ختام هذا الفصل الذي عرضت فيه لخلق البدوي بوجه عام وللمزايا الحسنة التي عرفت فيه وللأخرى السيئة التي فرضتها عليه بيئته الجافة وحياته البدائية أن أقول إن أكثر الذين عاشروه طويلاً واختبروا حياة البادية وأهلها من الروّاد الأجانب لم يفتهم أن يشيروا إلى نبل البدوي العربي وشرفه ـ وفي رأسهم بركهارت ودوتي ودكسن وجلوب وبلجريف وكثير غيرهم. ولعل من أوائل الرحالة الغربيين الذين ذكروا فضائل البدو وصفاتهم الحسنة الكاهن كاري الذي كتب سنة ١٦٧٢ يقول عنهم بعد أن يذكر عاداتهم: تلك

هي عادات هؤلاء العرب الذين نحسبهم متوحشين وغلاظاً. إنهم ليخجلون أكثر أغنيائنا المسيحيين في أوروبا، الذين غالباً ما يرفضون إعطاء قطعة خبز إلى سائح فقير أو غريب معدم. تلك هي العادات وطرق العيش التي تختلف عما في أقطارنا حيث تحمي الأبهة والرفاهية والتوق إلى الغنى والثروة الكثيرين منا. العرب والبدو هم الذين يمكن أن يعلمونا الدروس الثمينة في أن نخلع عنّا الطموحات الخارقة المجنونة لنيل الثروة والقصور والأثاث الرائع والثياب الفخمة والعطور واللذائذ وأشباهها التي تفسد عقول أعظم الرجال في الأقطار الأوروبية».

أما هيئة البدوي فهو يرسمها لنا في (ص٢٥٩) و(٢٦٣): نحيف الجسم خفيف الوزن لأنه كثير السير والتنقل ولأن الغذاء قليل في البادية. قوي الأسنان أبيضها لأنه يعيش في الغالب على الحليب الغني بالكالسيوم ولا يأكل اللحوم بكثرة، وهو يعتني بشعره فيطيله ويغسله ويجدله. ولكل قبيلة زيّ يكاد يكون خاصاً بها، والبدوي يلبس على رأسه كوفية يضع فوقها عقالاً.

**الدين عند البدو**

اختلف الذين كتبوا عن البدو من الأجانب بشأن ممارستهم للدين. فبينما يلاحظ بوركهارت أن أغلب البدو يصومون رمضان، يرى بالجريف أن ليس للإسلام تأثير في حياتهم. وموزل يخبرنا أنه لم يشاهد طيلة الفترة التي أمضاها بين البدو سنتي ١٩٠٨ و١٩٠٩ بدوياً رويلياً واحداً يصلّي. وأورد فولني حواراً دار بينه وبين أحد البدو حول أمور الدين فقال له البدوي: «كيف نصلّي وليس عدنا ماء نتطهر به. وكيف نزكّي ولسنا أغنياء، ولِمَ نصوم رمضان ونحن نصوم طيلة السنة، ولِمَ نذهب إلى مكة والله موجود في كل مكان»، بينما يخالفهم دكسن الرأي ويقول إن البدوي متدين يمارس طقوس دينه وشعائره.

ثم يخلص الدكتور جبور إلى القول (ص٢٩٩): إن البدوي لا يتقيد أحياناً بأحكام الشريعة فالبنت محرومة من الإرث وإن الزنا والسرقة والسلب عندهم ليست محرّمة. وقد لاحظ أن عرب قبيلة عنزة بوجه عام والرولة بوجه خاص لا يتقيدون كثيراً بالشرائع والفروض التي فرضها الإسلام سوى أولئك الذين تأثروا

إلى حد كبير بأهل الحضر فهم يصلّون ويصومون.

وينقل بلجريف أنه ناقش بدوياً في أمر الدين وأبدى له استغرابه في كيف يستطيع أن يواجه الله يوم الحساب بعد سلوكه في الغزو والنهب والسلب، وهل ينتظر أن يكون له مكان في الجنة؟! فأجابه البدوي: حين نواجه الله نسأله أن يقبلنا ضيوفاً ويعطينا لحماً وتبغاً فإذا أبى ركبنا خيولنا ورجعنا!.

**ثقافتهم**

فيما عدا أبناء المشايخ والأمراء فإن الأكثرية الساحقة من البدو أميون لا يعرفون القراءة والكتابة، وهذا لا يعني أنهم جهلة أو أغبياء، فإن عندهم ذكاءً فطرياً وهم يتعلمون في مجالس الكبار ما يسمعونه من مشايخهم وكبارهم يروون القصص والأخبار والنوادر والقصائد والأغاني وما إلى ذلك من المعارف التي يتعلمونها بالتواتر.

وخلاصة القول إن حياة البداوة اليوم لا تختلف كثيراً عما كانت عليه في الجاهلية كما صوّرها لنا الشعر الجاهلي: فالعصبية القبلية والتشديد على الخلقية والنخوة والمروءة وإكرام الضيف والمحافظة على الجيرة والكرم واليأس والشجاعة والفروسية لا تزال سائدة كما كانت من قبل. وهو يرى بالتالي أنه لا مندوحة لنا، لفهم الشعر العربي القديم وتمثّل صوره ومعانيه تمثلاً صحيحاً، من الاطلاع على حياة البدو اليوم لأنها لا تزال تحتفظ بأكثر الصفات والخصائص التي كانت تتصف بها قبل الإسلام.

وختاماً لا بد من أن نشير إلى أن الكتاب يضم العديد من الملاحق والوثائق والمراجع الأجنبية والعربية والفهارس تشمل ١٣٥ صفحة بحيث يذكر لنا في هذه الملاحق أسماء النباتات والشجيرات التي تنمو في البادية مع اسمها العلمي ويعطينا وصفاً موجزاً لها حسب الترتيب الأبجدي. وهذا كله يتطلب وقتاً وجهداً لم يبخل بهما المؤلف الذي شغله كتابه هذا طيلة حوالي نصف القرن من الزمن.

ومهما يكن من أمر، فإن مقارنة سريعة بين كتاب الدكتور جبرائيل جبور

«البدو والبادية» والكتب أو المقالات الأخرى التي عرضنا إليها تظهر ما يلي:

١ ـ إن الدكتور جبور يقارن بين ما كتبه الرحّالة من الفرنجة وبين ما توصل إليه هو من ملاحظات ويحلل كتاباتهم ويتعرض لها بالنقد والتقويم.

٢ ـ لم يعش الدكتور جبور بين البدو فترة طويلة كما فعل سليمان البستاني واسكندر يوسف الحايك في كتابه «البدوي» الذي يتناول فيه حياة البدو في سيناء والآخر «رحلة في البداية» الذي يتناول فيه بادية الشام وصولاً حتى الموصل في العراق.

٣ ـ وهو ـ كونه أستاذاً ـ يهتم بالناحية اللغوية والأدبية وأثر البادية في ذلك: في المفردات وفي الشعر خاصة.

٤ ـ البستاني لم ينشر أية صور في مقالاته الثلاثة. بينما الحايك نشر صوراً غير واضحة كما يجب لأن فن التصوير يومها لم يكن قد تطور كثيراً بعد. بينما الدكتور جبور ينشر صوراً عن حياة البدو والبادية واضحة وجيدة، تساعد القارىء على فهم أوضح لحياة البادية بإنسانها وحيوانها ونباتها.

٥ ـ الدكتور يذكر العديد من المراجع الأجنبية والعربية بينما الكاتبان الآخران لا يفعلان ذلك فهما يعتمدان على ملاحظاتهما ومشاهداتهما فقط.

٦ ـ الحايك لغته ركيكة وفيها أخطاء فهو صاحب معمل للسجائر وليس أديباً كسليمان البستاني ولا أستاذاً للعربية كالدكتور جبور.

٧ ـ من المعروف أن أكثر الدول العربية تحاول توطين البدو وتنفق مبالغ طائلة في سبيل ذلك وخاصة الدول النفطية الغنية أمثال المملكة السعودية ودول الخليج العربي كما تبذل جهوداً كبيرة لتعليمهم وتحسين أوضاعهم المعيشية من طبابة وتدريب على ممارسة الحرف والأعمال اليدوية واستخدام الآلات الحديثة... ولكن طالما بقيت هناك بوادي بقي هناك بدوي يعشق الحرية ويأبى أن يخضع إلى للشرائع والقوانين والقيود التي يخضع لها الحضر.